العقلية الألمـــانية

من فصول الدراسة اللغوية

للأستاذ أبي حيان

كنا فى ساعة من تلك الساعات الجميلة التى تتكاشف فيها الأذهان ، وتتصافى فيها العقول ، وتنطلق فيها الخواطر ؛ والتى تدّخرها الذاكرة بين أطوائها ، لتكون ذخيرة من السعادة ، تستمدها النفس فى أيام الشقاء ، وتنعم باستحضارها كلما طفت عليها الآلام ، وحزبتها الأيام . وكنا نتدارس فى تلك الساعة طرفاً من علم اللغات المقارن ، مما يتعلق بعلامات الإعراب ، ومكانها فى مختلف اللغات ، وأنها سمة من سمات اللغات البادية : كاللاتينية القديمة ، واليونانية الأولى . وما بقاؤها فى اللغة العربية الشريفة ، وقد جازت دَور البداوة ، وشاركت فى بناء الحضارة ، وأعرقت فى ذلك إعراقاً ، إلا مظهر من مظاهر القداسة التى أسبغها القرآن الكريم عليها ، بنزوله بها . والقرآن خالد خلود النفس : لا تبديل لكلمه ، ولا تغيير فى نظمه ، ولا تحوير لوضعه ؛ وكذلك اللغة العربية التى ارتبط كيانها بكيانه ، وأخذت مكانها من مكانه . فهذه العلامات الإعرابية هى فى حقيقة وضعها ومرد أمرها ، مظهر من مظاهر البداوة الإنسانية فى دور من أدوارها .

ولقد تنزل هذا الرأى من عقولنا ومشاعرنا منازل متفاوتة ، فمنا من مال إليه وأخذ به لطرافته ، ومنا من أنكره لغرابته ، إلى غير ذلك من الحالات المختلفة باختلاف المزاج العقلى ، ولكنه لم يلبث أن أثار فى أنفسنا طائفة من الخواطر متعارضة ، فلم يلبث ذلك المجلس الهادئ القارّ الرزين أن تحول عن هدوئه ، حين انطلقت تلك الخواطر متدافعة متضاربة ... فماج الجو من حولنا وثار ، وطال الجدَل واشتد ... وقد اختلفت أساليب المحاجة ، وتشعبت طرائق القول وأفانينه ، على ما يقع فى الخاطر ، وعلى ما توحى به المناقشة .

ولكن أحدنا ، وكان فى معارضة الرأى منذ بدا ، وكأنما كان يدخر - لحاجة فى نفسه - هذا الوجه الأخير من المعارضة ، أخذ يقول : « كيف يستقيم هذا الرأى لكم ، وكيف يصح فى الاعتبار العلمي ، إذا كان بين يدينا ما يأتى ببنيانه من القواعد ؟ أنسيتم أن اللغة الألمانية من اللغات المعربة التى تلتزم الإعراب التزاماً لا هوادة فيه ولا تسامح فى قواعده ؟ إذن ، فاعلموا أنكم بين اثنتين لا ثالثة لهما : إما أن تنزلوا عن رأيكم ، وتحتسبوا لدى « الجدل المجرد » جهدكم ، وإما أن تلجوا فى مذهبكم - وأعيذكم من اللجاجة فى الباطل حين يكشف عنه غطاؤه - فتزعموا أن اللغة الألمانية لغة متبدية ، وأن الجنس الألمانى لا يزال فى دور من أدوار البداوة . ويالها إذن من جرأة على الواقع ومجازفة بالقول ! إذ ما كان لأحد أن يذهب به وهمُه هذا المذهب ، فاللغة الألمانية هى — فيما يعترف الناس جميعاً — لغة الحضارة فى أوسع معانيها ، وأكمل ما عرف من صورها ... »

ثم أخذ صاحبنا يمد شعب الحديث فى كل مذاهبه الممكنة ، ويفيض فى بيان هذه الحضارة وتمجيد أصحابها ، ويستشهد من هنا وهناك ، فى حماسة متقدة ، وبلاغة خلّابة ، حتى لحسبناه — ونستغفر الله — داعية من دعاة النازى ، فهو يجرب فينا أساليبه ، ويتخذ منا موضوعاً له . وهكذا لم يلبث الميدان أن تحول - على غير إرادتنا - من بحث لغوى ومدارسة علمية ، إلى جدل سياسى ، يهدأ ويفور ، ويعتدل ويجور ؛ وبقيت المسألة الأولى فى موضعها حتى اليوم - فيما أعلم - لم يبتّ فيها برأى ، ولم ينته فيها إلى مقطع .

انفض هذا المجلس ومضى كل ما فيه ، إلا من هذه النفحة الروحية الخالدة — التى أودعها الله فينا — وأطلقنا عليها كلمة « الذاكرة » ، فقد أضفت عليه معنى الخلود ، ومضت به تختزنه بين ما تختزن ، مما يعمل دائباً فى تكوين شخصية هذا الإنسان الظاهرة والمستكنة ، والحاضرة والمستقبلة ؛ حتى إذا هاجته الحوادث ، واستثارته الأشباه والنظائر ، برز من مكمنه ، وأخذ يؤثر فى خيالنا ، كما تؤثر المحسوسات فى حواسنا .

وأنا منذ الحرب الفائتة لا تزال الذاكرة تطلق لى سورة ذلك المجلس ، وما تفتأ هذه الصورة تختال لى ، وتروح أمامى ، وتتبرج لعقلى . فإذا بى أسائل نفسى : أيكون الشعب الألمانى لا يزال يعانى البداوة فى دور من أدوارها ؟ أليست هذه المظاهر المختلفة فى مسلكه من الحرب وإثارتها ، وفى تقديره للحرية الشخصية وقيمتها ، وفى تلك الدعاوى العريضة التى لا يفتأ يقررها ويلج فيها ، وفى غير ذلك من الملابسات التى تنتظم الماضى والحاضر ، أليس كل ذلك